

من فضل القرآن وهدايته



«القرآن الحكيم كلام الله الخلاق العليم، فهو إذن يهدي إلى الحق والرشد، والسعادة والخير، ويبرئ النفوس من عللها وأسقامها، وهكذا أراد الله جلّ وعلاه: (.. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ...)

(المائدة / 15-16). - شفاء ورحمة للمؤمنين: يقول سبحانه: (وَنُنَزِّلُ لُمِّنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (الإسراء / 82). وما علا شأن العرب الأولين إلا حين استمسكوا بمنهاجه فأحياهم من موت، وجمعهم بعد شتات. ولقد جاء الكتاب العزيز يبصر بالخير، وينفر عن الباطل والشر، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويوصي بالاستقامة على منهاج توحيد الله تعالى وتنزيهه، وإعمال الفكر، والتدبر والتأمل في كل ما خلق ربنا، والإستمسك بشريعته الحنيفية التي لا تزيج ولا تعوج، فهو إذن روح وحياة، والفرق ما بين الاستجابة له وبين تنكب طريقه كالفرق ما بين الوجود والعدم. يقول الله وهو أصدق القائلين: (أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيِيَ بِنَايِهِ وَجَعَلَ خَلْقًا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...)

(الأنعام / 122). وإذا هجره الناس أو أعرضوا عنه ذهب ريحهم، وضل سعيهم في عاجلهم وآجلهم: (وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى

وَقَدْ كُنْتُ بِصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْصَى (طه / 124-126). نزل القرآن لتدبره ونقتفي أثره، يقول
سبحانه: (كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص / 29)، ويقول عزّ شأنه: (كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ لِيَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (إبراهيم / 1).

- الالتزام بأحكام القرآن: وهكذا تلقاه النبي (ص)، والسلف الصالح فقالوا: كنا
إذا حفظنا عشر آيات من كتاب الله لم نجاوزهنّ حتى نعلمهنّ ونعمل بهن - قالوا - فتعلمنا
القرآن والعلم والعمل جميعاً. ولقد عهد الله إلى رسوله (ص) - كما هو خطاب لنا في شخصه
(ص) أن نحتكم إليه: (إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَتَذَكَّرَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (النساء / 105). (وَأَنْزَلْنَاهُ بِآيَاتِهِمْ
بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ) (المائدة / 49). (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكُماً
عَرَبِيّاً) (الرعد / 37). (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَاوِمٍ يُوْقِنُونَ)
(المائدة / 50). هذا يسير من كثير في فضل القرآن. أما عن هداه وتركيبه، وسلطانه وأثره
على النفوس، فإن له لفعلاً في كل قلب واع، مسلماً كان المتدبر أو مشركاً أو كتابياً.

ولقد هدى الله تعالى نبيه وخاتم رسله بالقرآن العزيز وزكى به نفسه وحسّنه، وظاهره وباطنه،
وحبب إليه - الاصطباغ بصغته والاستمساك بعروته حباً؟ لا يدانيه حب، وبهذا رفع الله سبحانه
ذكر نبيه في محكم كتابه فقال جلّ شأنه: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ
أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثَهُ) (المزمل / 20). وبشره بالعز
والتأييد مقترنين بقيامه (ص) بآيات الذكر الحكيم: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) (الشعراء / 217-218). ويقرأ صلوات الله
تعالى عليه قراءة المتبصر المتدبر، ما يمر بآية فيها وعد إلا سأل الله تعالى الجنة، وما
قرأ آية فيها تسبيح إلا سبح، وما يتلو آية فيها ذكر العذاب إلا استعاذ بالله من النار،
وما يأتيه من أمر إلا عظمه حتى ليقشعر بدنه، ويشيب شعره إشفافاً من هيبة الملك
الكبير تبارك وتعالى. وفي المروي عنه (ص) - وقد قال له بعض أصحابه رضوان الله عليهم -
نراك قد شبت، يريدون: أسرع إليك الشيب. فيقول: "شبتني هود وأخواتها" يعني سورة هود
التي جاء فيها قول الله تبارك اسمه: (فَاسْتَخْرِمُوا كَمَا أُمِرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ
وَلَا تَطْغَوْا إِنَّمَا اللَّهُ تَعَالَى بَصِيرٌ) (هود / 112)، وأخواتها من نحو سورة
الحاقة وفي خواتيمها الآيات المباركات: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ
* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا
مِنْكُمْ مِنْ أَهْدٍ عَندهُ حَاجِزِينَ) (الحاقة / 44-47). وروى البخاري ومسلم في

صحيحهما عن عبداً بن مسعود قال: قال رسول الله (ص): "اقرأ عليّ". قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إني أشتهي أن أسمع من غيري". قال: فقرأت "النساء" حتى إذا بلغت: (فَكَذِبَ إِذَا جَاءَ نَصْرًا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِرَسُولٍ مِثْلِهِ وَجَاءَ نَصْرًا بِرَسُولِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) (النساء / 41)، قال لي: "كفّ" أو "أمسك" فرأيت عينيه تذرفان. كما زكّى الله بكتابه أنفس المؤمنين، وشهد أنّ الصحب الكرام تجافت جنوبهم عن المضاجع يتلون آياته الساعات الطوال: (أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلَاثُهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ) (المزمل / 20)، وأبقاها لهم لسان صدق فقال وهو أصدق القائلين: (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجِعُونَ) (الذاريات / 17). وتلقوه تلقي التقديس والاتباع: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا بِلَا مُتَشَابِهٍ مِثْلًا نَبِيٍّ تَقَشَّعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخُشُّونَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ) (الزمر / 23)، وسنة الله في الدين اجتباهم من قبل ومن بعد: (إِذَا تَوَلَّى عَٰلِيَهُمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (مريم / 58)، (.. فَبَشِّرْ عِبَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر / 17-18). وحتى أهل الشرك يأبى الله أن يجعل للقرآن عليهم سلطاناً، ومن أجل ذلك شرع لنا في كتابه الكريم أن نسمعهم شيئاً منه كلما تهيأت نفوسهم: (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (التوبة / 6). وقصة خشوع عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة لجلال الكتاب العزيز ليست بخافية. بل وفي إسلام عمر بن الخطاب وجبير ابن مطعم - رضي الله تعالى عنهما - إذ سمعا بضع آيات فشرح الله قلوبهما بالحق إن في هذا لبلاغاً. وأما الذميون فهم يعلمون صدق القول الرباني الذي أنزل على خير نبي، لكن أشقياءهم كتموا تلك الحقيقة: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَعْفُسُ هُمُ طُلُمًا وَعَلُوسًا) (النمل / 14)، (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة / 146)، والسعداء منهم فرحوا بنوره، وقاموا بحقه: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُوْفُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُوا مِنْ دُونِ بِلَالٍ مَعْرُوفٍ وَيَنْذَهُوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...) (آل عمران / 113-114)، (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفْرِيطُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ

رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ فَكَتُبْ لَنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (المائدة / 83). اللَّهُمَّ اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور بصائرنا وأفئدتنا وحبب إلينا رعاية أمانته، واتباع شريعته إنك البر الرحيم، والمستعان على كل عظيم. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. ►*أستاذ الدراسات الإسلامية جامعة الملك عبدالعزيز - جدة